حول مفهوم وحدود المجال العموميّ

د. مهند مصطفى

إنّ فكرة المجال العموميّ تفترض الفصل بين العامّ والخاصّ، كما جاء في مقاربة حنه أرندت؛ فالعامّ هو ملْك الجميع، ولكن لا يعني أنّ الجميع قادرون على التصرّف به كما يشاءون، بينما الخاصّ هو ملْك الخاصّ، وهو قادر على التصرّف به كيفما يشاء. إذن، يَفترض مصطلح "المجال العموميّ" أنّ هنالك –على الأقل– مجالين آخرَيْن يختلف عنهما المجال العموميّ، المجال الرسميّ والمجال الخاصّ، بحيث يقف المجال العموميّ بينهما.[1]

يُعتبر يورغن هبرماس من المنظّرين الذين أشبعوا مسألة المجال العموميّ تفكيرًا وتنظيرًا،[2] ويُعتبر كتابه "التحوُّلات البنيويّة للمجال العموميّ" من الكتب الهامّة المؤسِّسة في دراسة المجال العموميّ.[3] تَتبّعَ هبرماس نشوء المجال العامّ في المجتمع الأوروبيّ البرجوازيّ، واعتبر أنّ المجال العموميّ هو صناعة برجوازيّة، نتجت عن صعود البرجوازيّة الأوروبيّة، وذلك في الفترة الممتدّة من القرن السابع عشر إلى بداية القرن الثامن عشر. واعتبر نموذج المجال العامّ البرجوازيّ الأوروبيّ النموذجَ المثاليَّ، وتتفرّد به الحضارة الأوروبيّة. يعرّف هبرماس المجالَ العموميّ بأنّه "حقل الحياة الاجتماعيّة الذي يجري من خلاله

---

[1]. Shmuel N. Eisenstadt and Wolfgang Schluchter, Introduction: Paths to Early Maternities- A Comparative View, in: Shmuel N. Eisenstadt, Wolfgang Schluchter and Bjorn Wittrock (eds.). Public Sphere and Collective Identity, New Brunswick and London: Transaction Publishers, (1-18), 2001, p.10. Alberto O. Hirschman, Shifting Involvement: Private Interest and Public Action, Princeton: Princeton University Press, 1982.

[2]. ورد مصطلح المجال العموميّ أو العام (Public Sphere) في الترجمة الإنجليزيّة لكتاب هبرماس عن الألمانيّة بعد مرور ثلاثين عامًا على إصداره باللغة الألمانيّة، بينما كان المصطلح الذي استعمله هبرماس في كتابه الأصليّ هو Offentlichkeit، وتعني الإشهار. ونعتقد غير جازمين أنّ استعمال اللغة الإنجليزيّة، التي باتت متداولة في الفضاء الفكريّ والثقافيّ والأكاديميّ، يُعبّر عن رغبة في الهيمنة على المصطلح الذي أعيد اكتشافه معرفيًّا قبل ثلاثة عقود فقط.

[3].Jurgen Habermas, The structural Transformation of the Public Sphere, Cambridge, Massachusetts: The MIT Press, 1991.

تشكيل ومقاربة الرأي العامّ". إنّه الحقل الذي يتوسّط بين المجتمع والدولة. بالنسبة لهبرماس، الرأي العامّ يظهر في سياق خطاب العقلانيّة.[4]

يقول هبرماس: "إنّ المجال العامّ، أوّلًا وقبل كلّ شيء، مجال حياتنا الاجتماعيّة حيث ثمّة شيء عن الرأي العامّ يقترب من التبلور، ويكون الوصول إليه متاحًا لجميع المواطنين، وجزء من المجال العامّ يتجلّى في المحادثة اليوميّة، حيث يجتمع أفراد خاصّون لتشكيل كيان عامّ. بعد ذلك لا يتصرّف هؤلاء على أنّهم رجال أعمال أو محترفون في مجال العلاقات الخاصّة، وكذلك لا يتصرّفون كأعضاء في نسق دستوريّ معرَّض لقيود قانونيّة في بيروقراطيّة الدولة، فالمواطنون يتصرّفون على أنّهم كيان عامّ عندما يتباحثون بطريقة غير محدودة، أي إنّه هناك ضمان لحرّيّة التجمّع والترابط وحرّيّة التعبير عن آرائهم العامّة عن قضايا ذات طابع عامّ".[5]

يدعي أرماندو سالفاتوري أنّ المجال العموميّ ليس نتاج التطوّرات البرجوازيّة على المستوى الاجتماعيّ-الاقتصاديّ، أو الليبراليّ على المستوى الفكريّ، بل له جذور في التراث والدين.

"إنّ مفهوم المجال العامّ يكشف عن جذور تاريخيّة تتّسم بتعقيد وتنوُّع وتناقض أعمق ممّا جرى إدراكه داخل التراث الليبراليّ؛ ففكرة المجال العامّ تعتمد، في جوهرها، على فكرة الفعل، وعلى المناقشة والتفاوض المشترك بطرق مشروعة في عمليّة البحث عن المصلحة المشتركة، تلك العمليّة التي تتضمّن كذلك درجة معقولة من شفّافيّة الاتّصال بين الفاعلين المنخرطين في العمليّة. إنّه مفهوم معقَّد يتقاطع مع تشكيل التراث القانونيّ، والتراث المدنيّ والتراث الدينيّ كما يتقاطع مع ظهور الأفكار الحديثة للقوّة العَلمانيّة وتكريس هذه الأفكار".[6]

تَعرَّضَ تنظير هبرماس للمجال العموميّ البرجوازيّ إلى نقد شديد، وبعض هذا النقد اعتبر أنّ تحليل هبرماس للمجال العموميّ البرجوازيّ في القرن الثامن عشر يعبّر عن موقفه من المجال العموميّ الراهن، وهو في تصوُّري غير دقيق، فمقارَبة هبرماس للمجال العموميّ البرجوازيّ كانت مقارَبة تاريخيّة تحمل أبعادًا نظريّة، ومن الصعب الجزم أنّه ينظر إلى المجال

---

[4]. Jurgen Habermas, The Public Sphere: An Encyclopedia Article. *New German Critique*, No. 3, 1974, pp. 49-55.

[5]. مقتبس لدى: علي عبّود المحمّداوي، الإشكاليّة السياسيّة للحداثة: من فلسفة الذات إلى فلسفة التواصل ، هابرماس أنموذج، الجزائر: منشورات الاختلاف، 2011، ص:231.

[6]. أرماندو سالفاتوري، المجال العامّ: الحداثة الليبراليّة والكاثوليكيّة والإسلام، ترجمة: أحمد زايد، القاهرة: المركز القوميّ للترجمة، 2007، ص:29-30.

العموميّ الراهن بنفس المقارَبة. على أيّة حال، وُجّه النقد لمقارَبة هبرماس بالأساس حول تحوّلات اللاعبين في المجال العموميّ الراهن؛ فالتحوّلات التي أحدثتها ثورة الاتّصالات في العقود الأخيرة التي مكّنت الجميع، الخواصّ والعوامّ، من القيام بدور في المجال العموميّ، وحوّلت العموم إلى مُسيَّسين راغبين، حتى لو لم يكونوا مؤهَّلين، في المشارَكة في السجالات والنقاشات التي تكون في الحيّز العامّ. بعبارة أخرى، إنّ تحوُّلات العقود الأخيرة لم تُدْخِل لاعبين جُدُدًا إلى المجال العموميّ، بل غيّرته من حيث الشكل والمضمون والأهداف. فلم يعد ثمّة مجال نفعيّ للبرجوازيّة كما ظهر في القرن الثامن عشر، تستخدمه لتحقيق مصالحها وأهدافها السياسيّة والاقتصاديّة.[7] يرى هبرماس أنّ المجال العموميّ ليس مؤسّسة أو منظّمة أو إطارًا تَحْكمه كفاءات أو قواعد تنظيميّة للمشاركة والعضويّة، ورغم أنّه يمكن رسم حدود داخليّة فيه، فهو منفتح وديناميكيّ ومتطوّر حيال الخارج.[8]

يفرّق هيرشمان بين المجال الرسميّ والمجال العموميّ، في أنّ الأخير هو مجال الصوت بينما الأوّل هو مجال الولاء.[9] ويَقصد بالصوت المكانَ الذي تُسمع فيه السجالات والنقاشات والمواقف والآراء المختلفة، لذلك فهو متعدّد، وسجاليّ، بينما يمثّل الولاءُ الصوتَ الواحد، صوت صاحب السلطة؛ فمقابل التعدّديّة في المجال العموميّ هنالك أحاديّة في المجال الرسميّ، بصرف النظر عن النظام السياسيّ، فالانتخابات الديمقراطيّة هي حسم بين مواقف أيديولوجيّة سياسيّة مختلفة في خضمّ الصراع على السلطة، بينما المجال العموميّ لا يتأسّس على الحسم بل على السجال والنقاش وحضور كلّ المواقف.

تخلط الأدبيّات بين المجال العموميّ والمجتمع المدنيّ، فهنالك أدبيّات تُطابِق بين المجتمع المدنيّ بمفهومه المعاصر والمجال العموميّ.[10] وهذا الخلط نابع في اعتقادي من قصور في فهم الصيرورة التي تطوّر مفهومَيِ المجال العموميّ والمجتمع المدنيّ في العقود الأخيرة. قد تكون بداية نشأة المجال العموميّ متماهية اصطلاحيًّا وتاريخيًّا مع فكرة المجتمع المدنيّ التي برزت

---

[7]. Dounia Mahlouly, Rethinking the Public Sphere in a Digital Environment: Similarities between the Eighteenth and the Twenty-First Centuries, *eSharp*, 20, http://www.gla.ac.uk/media/media_279211_en.pdf
Muhammad Zubair Khan, Revitalization of the Public Sphere: A Comparison Between Habermasian and the New Public Sphere, *Communicatio*, 8, (1), 2014, p. 41-57.

[8]. Jurgan Habermas, Between Facts and Norms: Contribution to a Discourse Theory of Law and Democracy, Cambridge, MA: MIT Press, 1996, p. 360.

[9]. Alberto O. Hirschman, Exit, Voice and Loyalty: Responses to Decline in Firms, Organizations, and States, Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1970.

[10]. Dwayne Woods, Civil Society in Europe and Africa: Limiting State Power through a Public Sphere, *African Studies Review*, 35 (2), 1992, p. 77-100.

في خضمّ الإنتاج الفلسفيّ–السياسيّ حول فكرة العَقْد الاجتماعيّ. وشكّل المجتمع المدنيّ، آنذاك، مجالًا عموميًّا مقابل السلطة السياسيّة أو الدولة.[11] إلّا أنّ صيرورة تطوُّر فكرة المجتمع المدنيّ جعلته ينكمش في مفهومه النظريّ عن الحدود المفاهيميّة للمجال العموميّ ليكون جزءًا من الأخير وليس متماهيًا أو مطابقًا له. ما حدث أنّ مصطلح المجتمع المدنيّ اختزل في العقود الأخيرة في المؤسّسات الأهليّة والمدنيّة والمجتمعيّة الفاعلة أمام الدولة والمجتمع، علاوة على الدور التي تقوم به في التأثير على المجال العموميّ، حينًا أمام الدولة وحينًا آخر أمام المجتمع.

حريّ بنا القول أيضًا أنّ تطوُّر مفهوم المجال العموميّ وعلاقته مع المجتمع المدنيّ ليس ثابتًا وواحدًا في كلّ المجتمعات، فالتماهي بينهما قد يكون كبيرًا في دول سلطاتها السياسيّة لم تتأسّس على فكرة العَقْد الاجتماعيّ، ولذلك فالأمر غير محصور في أنّ المجتمع المدنيّ هو حُلْم تبغي هذه المجتمعات الوصول إليه بمعناه التأسيسيّ الفلسفيّ، بل لا معنى لفكرة المجال العموميّ أصلًا، فليس هنالك حدود فاصلة بين السلطة السياسيّة والمجال العموميّ، بل لا وجود للأخير أصلًا. وهنالك مجتمعات مرّت بصيرورة من التطوّر السياسيّ والمدنيّ لم تؤدِّ فقط إلى تحويل المجتمع المدنيّ إلى حالة مقابلة للدولة والسلطة السياسيّة، بل إلى فصل المجال العموميّ عن المجتمع المدنيّ بمعناه الحديث الذي يجري تداوله في الأدبيّات المعاصرة في عهد هبرماس وبعده.

يشير أيزنشتد وسكلوكتر أنّ مفهوم المجال العموميّ يرمز إلى وجود فضاءات مستقلّة لا عن النظام السياسيّ فحسب، وإنّما مفتوحة لجميع القطاعات في المجتمع. يتأسّس المجال العموميّ، برأي الكاتبين، من خلال صيرورات مختلفة، أوّلًا: التصنيف (Categorization)، ويرمي إلى تعريف وتأطير الخطاب وراء السجالات المباشرة؛ ثانيًا: الانعكاسيّة (Reflexivity) التي تستدعي النقاش حول المشاكل المتعلّقة بالصالح العامّ، من خلال معايير الاحتواء والإقصاء والاعتراف بالآخر؛ ثالثًا: العمل على استقرار ومَأْسَسة المجال العموميّ.[12]

يهدف المجال العموميّ إلى بناء المواطن الفاعل، عبْر مشاركة الناس في صياغة الصالح العامّ، إلّا أنّ على المجال العموميّ أن يكون منظَّمًا، لا فوضويًّا؛ ويكون ذلك من خلال مَأْسَسة السجال في المجال العموميّ، وتقوم وسائل الإعلام بدور أساسيّ في هذا الصدد. وفي هذا السياق، يشير بيتر دالغرين أنّه يجب بناء "مواقع مُمَأْسَسة فيها يستطيع المواطنون أن

---

[11]. حول فكرة المجتمع المدنيّ، انظر: عزمي بشارة، *مساهمة في نقد المجتمع المدنيّ*. رام الله: مواطن 1996.

[12] . Shmuel N. Eisenstadt and Wolfgang Schluchter, p. 10-11.

يشكّلوا ذواتهم كمواطنين فاعلين في العمليّة السياسيّة، والهدف من ذلك هو إنشاء بنى إعلاميّة للتعبير عن المصلحة العامّة ... [يؤدّي إلى] تحسين التنوّع من حيث المعلومات ووجهات النظر وأشكال التعبير، التي تعزّز المواطَنة الكاملة والفعّالة".[13] دفع "التداول الجيّد" (Good Deliberation)، على حدّ تعبير جيني مانسبريدج، في المجال العموميّ إلى توسيع مساحات الاتّفاق وتوضيح ما تبقّى من مساحات الصراع أو الاختلاف، وتضيف أنّ صوت الأقلّيّات، أو مَن هم خارج الإجماع السياسيّ، يسهم في تعزيز المجال العموميّ ودَوْره الوظائفيّ في توسيع الاتّفاق وتوضيح الصراع.[14]

[13]. Peter Dahlgren, Introduction, In: Peter Dahlgrenand and Colin Sparks, (eds.), Communication and Citizenship: Journalism and the Public Sphere, (1-24), London: Routledge,1991, p. 2+11.

[14]. Jane J. Mansbridge, 'Using Power/Fighting Power, in: Seyla Benhabib, (ed.), Democracy and Deference, (46-66), Princeton: Princeton University Press, 1996, p.47.